تاريخ الإرسال: 2010/03/31 - تاريخ النشر: 2010/06/14

كانط من التربية إلى السلام الدائم

أ - خضر حمايدي
أ – أسماء بن الشيخ
جامعة زيان عاشور الجلفة

تمهيد

قال عنه برتراند رسل إنه يعتبر أعظم الفلاسفة المحدثين ومن الحماقة ألا أقر بأهميته العظيمة، وقال عنه يوسف كرم إنه يشطر الفلسفة الحديثة إلى شطرين. إنه فعلا أحد عباقرة الفكر الفلسفي، بحيث لا يمكن لأية محاولة فلسفية جادة أن تتجاهل آراءه الفلسفية، و ليس ذلك إلا لأنه شكّل بحق نقلة نوعية في تاريخ الفلسفة، عندما انصرف إلى البحث في العقل وشروط المعرفة. إنه الفيلسوف الألماني كانط.

ولد إمانويل كانط Immanuel Kant (1724-1804) في كونيجسبرغ في بروسيا الشرقية وتعلم بها، من عائلة متواضعة، انتقل إلى الجامعة سنة 1740 وقدم أطروحة علمية سنة 1755 نال عليها شهادة جامعية أهلته لأن يزاول العمل بالجامعة، محاضرا في علوم مختلفة مثل الرياضيات وعلوم الإنسان والقانون والتربية. ترك العديد من الأبحاث والدراسات في علوم الفيزياء والفلك وخاصة في الفلسفة. من أهم مؤلفاته: صورة ومبادئ العالم المحسوس والعالم المعقول 1770. نقد العقل الخالص 1781. مقدمة لكل ميتافيزيقا مستقبلة تريد أن تعتبر علما 1783. تأسيس ميتافيزيقا الخلاق 1785. نقد العقل العملي 1788. نقد الحكم 1790. رسالة في السلام الدائم 1795. تأملات في التربية- ماهي الأنوار- ماالتوجه في التفكير؟ وهو مجموعة من المذكرات تعود إلى دروس في البيداغوجيا ألقاها كانط في الجامعة أثناء فترات متقطعة من 1776 إلى 1787

و قيمة كانط في تاريخ الفلسفة تتأتى أيضا من أبحاثه الأصيلة في الفلسفة الأخلاقية والسياسية والتربوية. على أن التربية تحتل مكانة خاصة في فلسفة كانط، و اهتمامه

بالتربية يعد استجابة لما كان سائدا في أوروبا من صراع سياسي وعسكري. كان شديد الإعجاب (بإميل) وقد اتفق مع روسو على خيرية الطبيعة الإنسانية، لم يجعل للتربية هدفا اجتماعيا محضا بل تحدث عن هدف إنساني عالمي وبيّن أن التربية قادرة على الارتقاء بالإنسان إلى أعلى درجات الكمال. وقد كان السلام من بين أكبر اهتمامات كانط حيث كتب رسالة في السلام الدائم وهي عبارة عن مشروع سلام عالمي دعا في بنوده إلى أن نعمل من أجل السلام، والعمل من أجله يقتضي إعداد الإنسان بواسطة التربية.

وهذه الورقة تسعى إلى تبيين كيف يكون السلام مشروعا تربويا؟ بعبارة أخرى، ماهي المبادئ التربوية التي يمكن أن تؤسس لتربية عالمية تهدف إلى تحقيق سلام دائم؟ وللإجابة على هذا السؤال حاولنا أن نتتبع خصائص الطبيعة الإنسانية، ودور التربية في نمو هذه الطبيعة نموا يسمح بتحقيق الكمال الإنساني الذي يؤدي إلى تكريس قيم السلام.

1-خصائص الطبيعة البشرية عند كانط:

إن التربية هي عملية نمو للفرد الإنساني، والإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمكن أن تقع عليه العملي التربوي، كما أنه الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يمارس هذا العمل التربوي على غيره من بني جنسه، وبالتالي فإن الإنسان هو غاية التربية ووسيلتها في الوقت ذاته.لذلك فإن كل نظرية في التربية تسعى لأن تبلغ أهدافها ينبغي لها أن تستند في تحديد مبادئها وأهدافها ووسائلها إلى تحديد وفهم مختلف جوانب الطبيعة الإنسانية.

والمقصود بالطبيعة الإنسانية هو مختلف الخصائص التي يولد الإنسان وهو مزود بها، والتي يكون لها دخل مباشر أو غير مباشر في تحديد جوانب شخصيته الجسمية والنفسية والعقلية والأخلاقية، هذه الجوانب التي تعد موضوعا للتربية.

ولما كان كانط يهدف إلى الوصول بالإنسان إلى كماله، فقد تميزت نظرته التربوية بالتركيز على طبيعة الإنسان نفسه، متخذا من استعداداتها الطبيعية مبدءا لأي نمو ممكن. فهو يدعو إلى فهم هذه الطبيعة الإنسانية فهما صحيحا، حتى تستطيع التربية تحقيق أهدافها، لأن التربية في جميع الأحوال تتخذ من الطبيعة الإنسانية موضوعا لها لذلك سنحاول أن نبين

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كيف ينظر كانط إلى الطبيعة الإنسانية.

يرى كانط أن الإنسان يولد وهو مزود بمجموعة من الاستعدادات الطبيعية، هذه الاستعدادات تمثل مبادئ نموه حتى يصل هذا الإنسان إلى غايته[1]. ولتوضيح ذلك نقول إن الإنسان في نموه شبيه ببذرة النبات التي تحتوي على عناصر الحيوية، ولا تحتاج إلا إلى تربة صالحة ومناخ سليم حتى تنمو نموا سليما.

وأهم ما يميز الطبيعة الإنسانية هو: أولا الاستعداد إلى الخير، إذ يتصور كانط أن العناية الإلهية تقول للإنسان ((امض في هذا العالم ـ هكذا يمكن أن يتحدث الخالق إلى الإنسان ـ فقد وهبتك كل الاستعدادات إلى الخير. و يجدر بك أن تنميها، وبالتالي فسعادتك وشقاؤك بيدك)) [2] يتبين من هذا أن كل إنسان في هذا العالم له من الاستعداد إلى الخير ما يمكن أن يجعله إنسانا فاضلا يسعى إلى الخير، وأن هذا الاستعداد ليس بالجامد بل يتسم بالمرونة وقابل للتنمية عن طريق العوامل التربوية. لكن إذا كانت هذه الطبيعة الإنسانية تتسم بهذه القابلية للخير فمن أين يأتي الشر؟

يجيب كانط على هذا السؤال بالتأكيد على خلو الإنسان في الأصل من الشرّ، وأن الشر يعود بالأساس إلى إهمال هذه الطبيعة الإنسانية، وتركها عرضة لمختلف الميول الحيوانية التي تصرفها عن غايتها الحقيقية، التي تتمثل في الكمال الإنساني. فالشرّ يعود إلى غياب القوانين والقواعد،[3] ولا يعود إلى الطبيعة البشرية ذاتها.

أما الخاصية الثانية التي تميز الإنسان فهي الحرية، ((إذ أن للإنسان بطبعه نزوعا شديدا إلى الحرية))[4]، وعلى هذا فالإنسان يولد وفي إمكانه أن يصبح كيفما شاء، أي في إمكانه أن يكون صالحا أو أن يكون طالحا لأنه يولد وهو يتمتع بالحرية. وتمتعه بالحرية يتيح له وللتربية أن تصل به إلى كماله الإنساني ، و يجعل هذا الكمال ممكنا. على أن حريته هذه قد تمثل نقطة قوة في حال ما حدها بحدود العقل أو قد تكون نقطة ضعف إذا استمر في إهمال نفسه. واستمرار إهمال الذات يرجع أساسا إلى غياب القوانين، خاصة القوانين الأخلاقية، ومادامت القوانين الأخلاقية لا تصلح كقوانين لنا إلا من حيث أننا كائنات عاقلة، وهي لا تستمد إلا من خاصية الحرية وحدها، وجب أن تكون الحرية خاصية تتمتع بها جميع الكائنات العاقلة. [5]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2ـ مفهوم التربية عند كانط:

إن التربية التي يتحدث عنها كانط هي تلك التربية التي تسعى إلى الارتقاء بالإنسان إلى كماله، وهي لهذا السبب تبقى مستمرة مع الإنسان ولا تقتصر على مرحلة الطفولة فحسب، لأن الجماعات الإنسانية تسعى دائما للمحافظة على وجودها ووجود قيمها الإنسانية ، وعلى هذا كانت التربية هي وسيلة المجتمعات البشرية فأسست لها المؤسسات ووضعت لها المناهج، إيمانا منها بأن التربية هي التي تستطيع أن تبعث في الأجيال الجديدة مختلف المعايير والمعتقدات وأنماط السلوك التي تجعل منهم أناسا صالحين.

والتربية عند كانط عمل ضروري وخاص بالإنسان دون غيره من الكائنات ((فالإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يجب تربيته))[6]، أي أن موضوع التربية هو الإنسان، وهو موضوعها من حيث أنه يولد وهو ناقص، فإذا كان هذا الإنسان كائنا حيا، له ما للكائنات الحية من خصائص هامة، فإن إنسانيته لا تتوقف عند هذا الحد، بل هو يحتاج إلى التربية حتى ينمو و يحقق كماله ، على أن هذه التنمية يقوم بها أفراد إنسانيون إذ ((لا يستطيع الإنسان أن يصير إنسانا إلا بالتربية. فهو ليس سوى ما تصنع به التربية. ولا بد بالتأكيد من ملاحظة أن الإنسان لا يربَّى إلا من قبل أناس، ومن قبل أناس رُبُّوا هم أيضا))[7].

يتضح من هذا أن الفرد الإنساني لا يدخل ضمن دائرة الإنسانية إلا بفعل العمل التربوي، وأن التربية قادرة على أن تشكّل شخصية الإنسان منذ البداية لأنها تستطيع أن تُكسِب الطفل أنماط سلوكية مختلفة تكون بمثابة استجابات سلوكية يواجه بها مختلف مواقف الحياة. وتتضح أهمية التربية إذا ما افترضنا أن نترك طفلا دون تدخّل الأفراد الآخرين في توجيه نموه، الأمر الذي سيؤدي به إلى حالة من التوحش، يصعب معها على الإنسان التعامل مع مواقف الحياة العديدة والمتجددة، كما يصعب علينا أن نصفه بالإنسانية. فإذا نحن لم نستعن بمجهود الآخرين، ولم نستفد مما ينتجه غيرنا من أنماط سلوك ومعايير وقيم يصعب علينا أن نحيا، ونصبح دون شك في مرتبة أقل من مرتبة الإنسان ((فالتربية فن يجب أن تستكمل ممارسته من قبل الكثير من الأجيال. فكل جيل، إذ يستفيد من معارف الأجيال السابقة، هو دائما أكثر قدرة على إرساء تربية تنمي كل الاستعدادات الطبيعية لدى الإنسان تنمية هادفة ومتوازنة))[8]. وعلى هذا الأساس يعتقد كانط أن التربية هي التي تصنع الإنسان، وهي تصنعه كيفما شاءت

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبما أن التربية وظيفة اجتماعية ـ بمعنى أنها تحدث في المجتمع وعبر مؤسساته ـ فإن المجتمع يصبح هو القادر على أن يصنع الإنسان وفق ما يحدده من أهداف وعلى أساس ما يضعه من مبادئ، فكانط لا يلغي دور المجتمع في العمل التربوي ، ومن خلال هذا الدور لا يستبعد أثر المحددات الاجتماعية التي لها التي تتدخل في شخصية الإنسان، إذا ما أريد لهذه المحددات أن تطغى على العمل التربوي.

وإذا كان كانط يتحدث عن وجود دور للمجتمع بمؤسساته في عملية التربية، فإنه لا ينبغي أن نتصور أنه يعلي من شأن التربية الاجتماعية ، تلك التربية التي تسعى إلى تحقيق أغراض اجتماعية فحسب. بل على العكس من ذلك تماما، إنه يجعل من التربية ـ ومختلف العوامل الاجتماعية كالأسرة والمدرسة ـ وسيلة للوصول بالإنسان إلى كماله ولا يتأتى ذلك في نظر كانط إلا إذا احترمت التربية طبيعة المربَّى. فما هي هذه التربية التي تمكن من الوصول بالإنسان إلى كماله؟

يجيب كانط فيقول ((الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يجب تربيته.ونقصد فعلا بالتربية الرعاية (التغذية، التعهد) والانضباط والتعليم المقترن بالتكوين. ومن هذه الزوايا الثلاث، يكون الإنسان رضيعا، وتلميذا، وطالبا))[9] .هذا التحديد لماهية التربية فيه إشارة واضحة،(أولا) لموضوع التربية؛ فالتربية مرتبطة بالإنسان دون غيره من الكائنات الحية، وهي(ثانيا) تتعلق بمختلف جوانب الإنسان الجسمية والنفسية والعقلية والخلقية، وهو يعتبر موضوعا لها في مختلف مراحل حياته، إذ ليست التربية مقترنة بمرحلة الطفولة فقط، و لأن لكل مرحلة من مراحل حياة الإنسان خصوصيتها التي تميزها، كان من الضروري أن تسعى التربية في كل مرحلة من هذه المراحل إلى تحقيق هدف يتناسب وتلك المرحلة، فالتربية عند كانط لا تسعى إلى التعجيل بنمو الطفل عن طريق إكسابه المعارف والقيم الأخلاقية، بل تكمن في استغلال قواه الطبيعية و إمكانياته في كل مرحلة من المراحل التي يمر بها، شرط أن يكون هذا الاستغلال قائما على أساس الحرية بدل التسلط والتعسف، لأن الغرض من التربية هو تكوين الإنسان الذي يتمتع بحريته ويتصرف وفق القانون الأخلاقي المستمد من طبيعته الحرة . إذن، يمكن الحديث في التربية عن أهداف جزئية، وكل هدف منها متعلق بمرحلة معينة ومجموع هذه الأهداف يحقق هدفا كليا (الكمال الإنساني)، من هنا يمكن التمييز في التربية بين الرعاية، والانضباط، والتعليم.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1ـ الرعاية: يرى كانط أن التربية يجب أن تكون مرتبطة بحاضر الإنسان حتى و إن كانت تهدف إلى غايات مستقبلية، لذلك على المربين أن يدركوا أن نجاح العملية التربوية مرهون بمدى مراعاتهم لخصوصية المرحلة وطبيعتها. وأول هذه المراحل هي عندما يكون الطفل رضيعا، أين يكون في حاجة ماسة إلى رعاية أبويه، والرعاية تعني توفير الغذاء، كما تعني اتخاذ كل الإجراءات الاحتياطية من أجل الوقوف بين الطفل وبين استعماله لقواه استعمالا مضرا.[10]فدور الوالدين هنا هو مراقبة الطفل مع توفير الحرية له في الحركة وفي الصراخ بل في كل الأمور باستثناء الأمور التي يمكن فيها أن يضر بنفسه.[11] بحيث لا ينبغي التدخل في النمو الطبيعي للطفل، وأن يترك له المجال واسعا ليستثمر قدراته وملكاته

2ـ الانضباط : في مرحلة ثانية تسعى التربية الكانطية إلى تعويد الطفل الانضباط، على أن يكون هذا الانضباط في مراحل متقدمة، وعندما يذهب الطفل إلى المدرسة، لا ينبغي أن يكون ذهابه لغرض إكسابه المعلومات والمعارف فذلك يعد انحرافا عن الغاية الحقيقة للتربية، بل يجب أن يكون وجوده في المدرسة لغرض تعويده الامتثال لأوامر تمهيدا لامتثاله للقوانين، ويعد الانضباط هنا سالبا وهو بهذا المعنى خطوة حاسمة في العمل التربوي، لأنه هو الذي يخرج الإنسان من المرتبة الحيوانية. وإذا كانت تتجاذب الإنسان نوازع حيوانية، فإن انصرافه إليها يبعده عن غايته، فيكون الانضباط ضروريا، لأن استمرار الإنسان في الحياة الحيوانية يؤدي به إلى حالة من التوحش، وحالة التوحش هذه ـ في نظر كانط ـ هي الاستقلال عن القوانين[12] . لذلك فإن الانضباط هو القادر على الحيلولة دون الوصول إلى الحالة التي لا يمكن التنبؤ فيها بسلوك الإنسان.

3ـ التعليم: التعليم أو التوجيه هو الوظيفة التي تناط بالمدرس أو الأستاذ، حيث يقوم هذا الأخير بتوجيه الطفل إلى تطبيق ما درس، و يرى كانط أن تعليم الطفل يتم عن طريق السعي إلى الربط التدريجي بين المعرفة والقدرات ، و العلم الذي يساعد على تحقيق هذا الهدف هو علوم الرياضة، كما يجب ربط المعرفة بالكلام، وتمييزها تمييزا جيدا عن الظن [13]

3ـ نواحي التربية

التربية الجسمية: يركز كانط على التربية الجسمية تركيزا خاصا لما لها من دور في تشكيل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شخصية الطفل، ولما لها من انعكاسات على نفسه وعقله لاحقا. فإذا كان علم النفس يرى أن الإنسان يولد ضعيفا عاجزا فتهيئ له الهيئة الاجتماعية بطريق التربية أسباب حفظ بقائه ونموه [14]، فإن كانط يرى أن هذه الهيئة ينبغي لها أن تراعي طبيعة هذا الإنسان ، بحيث يكون تدخلها توفيرا لأسباب النمو. على أن تكون هذه الأسباب طبيعية لا غير، بداية من الغذاء الذي يجب أن يكون غذاء طبيعيا (لبن الأم)، لما له من قيمة تتوافق وخصائص الرضيع الطبيعية، إلى مختلف الاحتياطات التي يقترحها كانط على المربين لتجنيب الطفل نموا خاطئا ينعكس سلبا على شخصية الإنسان.

ويشدد كانط في هذه المرحلة على ما يعرف بالتربية السالبة وهي تربية تمنع تدخل المربي في حياة المربَى ((أي أنه ينبغي ألا يضاف أي شيء إلى الاحتياطات التي اتخذتها الطبيعة، وأنه ينبغي فقط عدم إرباكها))[15] وإرباك الطبيعة إنما يكون بوضع مجموعة من الأنظمة الغذائية ومجموعة من الإجراءات التي يتخذها الأولياء والتي يُعتقد أنها تساعد على النمو الصحيح والسليم للجسم. و هذه الإجراءات غالبا ما تكون بغرض تحقيق أهداف تتنافى وطبيعة المرحلة، إذ يلجأ ـ مثلا ـ بعض المربين إلى استعمال الغناء والإنشاد للتخلص من بكاء الطفل وصراخه والغرض من ذلك تعويد الطفل الهدوء والسكوت والكف عن الصراخ ، غير أن هذا الأسلوب في التعامل مع الطفل يشكل في نظر كانط تدخلا مربِكا للطبيعة، لأن صياح الطفل وبكاءه ـ زيادة على أنه يمثل انفعالا طبيعيا ـ فيه تنمية لأعضاء الطفل الداخلية وقنوات جسمه، زد على ذلك أن هذه الطرق في الإسكات تمثل ظهور الإفساد الأول للطفل.[16]

إن التربية السالبة هي التي تقتضي من المربي ومن ورائه كل الهيئات الاجتماعية توفير الرعاية للطفل. لأن التدخل في نمو المربى لن يستطيع أن يضيف إلى القوى الطبيعية التي يولد الطفل مزودا بها قوى جديدة، ولا يستطيع أن ينمي هذه القوى، وكل ما يفعله أنه سيشكل عائقا للنمو الطبيعي لتلك القوى، الشيء الذي يمثل انحرافا خطيرا عن الغاية الحقيقية للتربية، تلك الغاية التي تتمثل في الكمال الإنساني.

التربية النفسية: لا شك أن التربية الجسمية تنعكس مباشرة على التربية النفسية، لذلك فقد ربط كانط بنيهما بحيث جعل تربية النفس تكوينا جسميا بوجه ما[17]. ووجه العلاقة بينهما ينكشف إذا ما أدركنا أن هدف كل تربية صحيحة، هو تحقيق التوازن النفسي، الذي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يفضي فيما بعد إلى شخصية منسجمة ومتكاملة. وعلى هذا الأساس كان من الضروري في المرحلة الأولى من حياة الطفل، أن نعتمد على حريته فنحترم اندفاعه.[18]ولذلك فقد نبه كانط على أن كل تعامل مع الطفل، يجب أن يكون تعاملا مراعيا للطبيعة الإنسانية، حيث لا ينبغي أن نُفرط في منع الطفل من تلبية حاجاته ورغباته، إذ لا ينبغي أن يكون الانضباط نوعا من الاستعباد بل يجب أن يشعر الطفل دائما بحريته، ويجب أن يعطى كل ما يحتاج إليه.[19] على ألا نسرف في ذلك، بل يجب أن نضع لذلك حدودا معينة، ومن هذه الحدود؛ ينبغي أن تكون حرية الطفل مشروطة بحرية الغير وأن تكون لتلك الحاجات التي نلبيها للطفل نافعة له.

التربية العقلية:

ترتكز التربية العقلية على تزويد الطفل بثقافة توجه إلى النفس حتى يكون الطفل قادرا على الاستمرار في الحياة كإنسان. وينطلق كانط من نقطة أساسية تتمثل في حاجة الإنسان إلى العمل وهو يعتبرها ضرورية لأن اللّه لم يكن قد وفر المزيد من العناية بحيث أعد كل الأشياء سلفا.[20] لذلك على الطفل أن يتعلم عادات العمل حتى يستطيع أن يقوم بوظيفته ككائن إنساني متكامل. على أن كانط لا يتحدث عن عادة العمل بالمعنى الآلي ، الذي يفقد الإنسان إنسانيته، بل هو يتحدث عن ضرورة تنمية الميل إلى العمل، فيصبح العمل عندئذ تعبيرا عن شخصية الإنسان الحرة والمبدعة والخلاقة وهنا تكمن تنمية العقل بواسطة الخبرات.

ويلح كانط في التربية على ضرورة انتهاج الطريقة السقراطية في تربية العقل ، بحيث تعمل التربية على توليد واستخلاص المعارف العقلية من العقل المربى ، ونتجنب تلقين الطفل المعلومات والمعارف، لأن في ذلك تعويد الطفل التبعية للغير، وتجميد لحركة العقل وفاعليته. لذلك ينصح كانط أن تنمى القوى العقلية لدى الطفل المربّى عن طريق إنجازه بنفسه لما هو مطالب بفعله، كان يطبق القاعدة النحوية التي تعلمها أو أن ينجز خريطة بنفسه، إذ أن أهم وسيلة لتنمية الفهم هي إنجاز الأشياء.[21]

التربية الأخلاقية :

يعد الجانب الأخلاقي أحد أهم الجوانب التي يجب على التربية أن تتوجه إليه بالعناية، لما لهذا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الجانب من انعكاسات على الأفعال الإنسانية. لذلك فإن كانط يعتقد أن الهدف من التربية في نهاية المطاف وفي جميع أساليبها هو تكوين الشخصية الأخلاقية التي تكون لها القدرة على إتيان الأفعال الخيرة. وحتى تصل التربية إلى هدفها هذا لا بد أن تقوم على مبادئ لا على الانضباط، لأن الانضباط يكون مانعا للعيوب، في حين أن المبادئ تنمي طريقة التفكير. لذلك كان من الضروري أن تتمتع الثقافة الأخلاقية لدى الأولياء والمعلمين بكثير من الأنوار.[22]

4ـ غرض التربية

لا يختلف علماء التربية على أن التربية عمل إنساني، أي أن موضوعها هم الأفراد الإنسانيون وحدهم دون غيرهم من الكائنات الحية. إلا أن هناك اختلاف بين المجتمعات حول الغرض الذي تسعى إليه التربية، ويعود هذا الاختلاف في الغالب إلى اختلاف النظرة إلى الإنسان. على أن ما يميز التربية الحديثة هو وجود ((مبادئ عامة تقوم عليها... فنجد أن التربية الحديثة قد اعتمت بالتعبير عن الذات وتنمية الفردية بدلا من القسر الخارجي الذي كان يسم التربية التقليدية))[23]. ويعتبر كانط من بين أهم الفلاسفة الذين اهتموا بالإنسان كهدف رئيس للتربية، إذ أن المتأمل في كتابه (تأملات في التربية ، ماهي الأنوار،ما التوجه في التفكير) يجد أن أساس العملية التربوية في نظر كانط هو الإنسان، مركزا على ضرورة احترام حريته في جميع مراحل النمو. وبذلك فإن غرض التربية هو النمو الصحيح للفرد الإنساني باتجاه الكمال.

ويرى كانط أن هناك عائقان يقفان أمام بلوغ هذا الغرض وهما:

1 ـ حرص الأولياء على نجاح أطفالهم نجاحا جيدا في الحياة.[24] فالأسرة التي تسعى إلى أن تصل بالطفل إلى مرحلة يكون فيها قادرا على التكيف مع المجتمع الذي يعيش فيه، لا تفكر في الطفل بقدر ماهي تفكر في وجودها. إذ النجاح في الحياة بهذا المعنى لا يعدو أن يكون اكتساب لأنماط سلوكية تتيح للطفل التكيف مع ما يحيط به من مستجدات وظروف اجتماعية.

2 ـ لا يرى الأمراء في رعاياهم سوى أدوات لأغراضهم[25]. وهذا العائق تكمن خطورته في انحراف التربية عن غرضها الحقيقي، إذ في الوقت الذي ينتظر من التربية أن تتجه إلى الإنسان بوصفه موضوعا وهدفا في الوقت ذاته، تعمل التربية الموجهة بعوامل سياسية إلى تحقيق أغراض سياسية،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهنا تكون الدولة واستمرارها هو الغرض من التربية.

وإذا كان من الممكن أن نتصور لهذه الأهداف قيمة على الصعيد الاجتماعي، فهي على الصعيد الإنساني تعتبر أهدافا قاصرة. لذلك فإن التربية عند كانط لابد لها أن تتجه إلى تحقيق الكمال الإنساني الذي يتمثل في الخير الكلي باعتباره هدفا ممكنا، وعدم الوصول إليه في مرحلة ما من مراحل التاريخ لا يدل على استحالته. بل إن الإنسانية مهيأة له وتمتلك استعدادات لأجله. ومن هذه الجهة فقط يمكن((تصور مخطط في التربية يجب أن يتخذ اتجاها كونيا أو عالميا)).[26]هذا الاتجاه في التربية الذي يكون موافقا تماما للطبيعة الإنسانية بوصفها أعدل الأشياء توزعا بين بني الإنسان. وإذا كانت فكرة تحقيق الخير الكلي ممكنة، فإن تحقيقه يتضمن بشكل ضروري تحقيق الخير الخاص بحالة الإنسان الراهنة والتي تسعى الأسرة إلى تحقيقها، ولا مجال للشك أن ما سيتبع هذا الخير الكلي هو كل النتائج العظيمة سواء كانت تلك النتائج متعلقة بالفرد أو بالدولة أو بالعلاقات بين الدول. فالتربية السليمة هي تحديدا الينبوع الذي ينبثق عنه كل خير في هذا العالم.

5ـ التربية والسلام العالمي:

عندما يتحدث كانط عن مشروع في التربية ، فهو ينطلق من واقع العمل التربوي الذي كان سائدا في عصره، يقول كانط واصفا ذلك الواقع ((أما في التربية الراهنة فالإنسان لا يبلغ تماما الغاية من وجوده)).[27]هذا الواقع الذي فشل في إيجاد صورة الإنسان الكامل، والسبب في ذلك يعود إلى سعي رجال السياسة إلى تقوية الدولة على حساب إنسانية الإنسان، يقول كانط مبينا الوضع الذي آلت إليه وضعية الإنسان في عصره((إننا نعيش عصرا يتميز بالانضباط والثقافة والحضارة، ولكننا لا نعيش إلى الآن عصرا يتسم بالتنشئة الأخلاقية. و يمكن القول في حالة الإنسان الراهنة أن سعادة الدول تزداد في نفس الوقت الذي يزداد فيه بؤس البشر))[28] ولعل هذه الوضعية كانت وضعية عامة في أوروبا، حيث تميزت أوروبا في هذه الفترة بنمو النزعات الوطنية والقومية ونمو الولاء للدولة وأناشيدها وأعيادها ، وأصبحت المثل القومية أهدافا أساسية في التعليم العام[92].

هذا الوضع، في نظر كانط لم يكن وضعا يبعث على الارتياح والطمأنينة على مصير

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإنسان في أوروبا، خاصة إذا عرفنا أن كانط عاش إبان حرب السنوات السبع والتي في جانب منها احتل الروس بروسيا الشرقية. يقول كانط ((الكل يعرف الخطر الذي تعرضت له أوروبا حتى أيامنا، ولم تتعرض له الأجزاء الأخرى من العالم)).[30] إذ في ظل هذه الظروف اتجهت المناهج التربوية إلى تحقيق غايات سياسية واجتماعية، فابتعدت التربية بذلك كثيرا عن غايتها المثلى، وأصبح التدخل في تكوين شخصية الإنسان وتوجيهها، تبرره الأهداف الاجتماعية. على أن هذا المبرر في نظر كانط مبرر واهٍ، لأنه مؤسس على تصور خاطئ لحقيقة الإنسان ولحقيقة وجوده. وهو التصور الذي يجعل من الإنسان مجرد أداة في يد المجتمع (الدولة) ، و يجعل من المجتمع ومؤسساته ونظمه السياسية هدفا و غاية تبرر كل الوسائل والمناهج التربوية، لأن هذا في نظر كانط ((سيؤدي إلى معاملة البشر كما لو كانوا مجرد آلات بأيدي الآخرين، الأمر الذي قلما يتوافق مع حق الإنسانية))[31]. وإذا كانت الغاية من الوجود الإنساني هي تحقيق كماله الأخلاقي الأسمى، هذا الكمال الذي تتوقف عليه سعادة الإنسانية جمعاء، فإن كانط يرجع هذا الإخفاق التربوي الذي تميز به عصره إلى انصراف التربية عن الهدف الحقيقي.

لا شك أن مصير الإنسانية جمعاء مرتبط بتحقيق السلام، وإذا كان تحقيق السلام لا يتأتى إلا إذا استطاعت الإنسانية أن تتخطى حالة اللاأمن، فإن ذلك يكاد يكون مستحيلا إلا إذا تم تأسيس العلاقات بين الدول على أساس العقل والأخلاق وتغليب الحق على المنفعة وهو السبيل الوحيد إلى تحقيق السلام في العالم. أما إذا انفصلت العلاقات بين البشر ومن ورائها العلاقات بين أفراد المجتمع الدولي عن العقل والأخلاق، بدافع من المصلحة، فإن ذلك سيؤدي لا محالة إلى حالة من التوتر الدائم الذي ينعكس حتما بالسلب على سلامة البشرية.

وهنا تظهر التربية كعامل حاسم وأساس لكل سلام دائم، لأن التربية هي التي تهيئ الأرضية الأخلاقية لكل فعل إنساني يعكس تحقيق الكمال الإنساني، حيث يرى كانط أن الإرادة الإلهية إذا كانت قد أوجدت في الإنسان بذور الخير، فإن الإرادة الإلهية تدعو الإنسان إلى أن يعمل على تنمية هذه البذور، لأن سعادة الإنسان ومن ورائها السعادة الإنسانية، ليستا عطايا إلهية بل هما نتيجة العمل الإنساني، إنهما النتيجة المباشرة لكل تربية استندت إلى مبادئ الحق، وإلى تنمية الاستعدادات الطبيعية للإنسان، إذ التربية كفنّ قادرة على أن تصل بالإنسانية إلى سلام دائم إذا استندت إلى المبدأ التالي:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

((يجب أن لا يربى الأطفال فقط بحسب الحالة النوع البشري الراهنة، بل بحسب الحالة الممكنة التي تكون أفضل[منها] في المستقبل ، أي وفق فكرة الإنسانية وغايتها الكاملة)).[32]

وتجدر الإشارة إلى أن هذا المبدأ الذي يتحدث عنه كانط لا تكمن قيمته في تأكيده على الهدف الإنساني من التربية فحسب، بل إن قيمته متأتية من كونه حوّل التربية من وسيلة لخدمة الدولة، إلى وسيلة لتكوين الإنسان، ولا نخال أنفسنا نجانب الحق إذا قلنا أنه جعل الغاية من وجود الدولة هي تحقيق الكمال الإنساني. وهاهو ذا كانط يضع ((البند النهائي الأول المقترح بقصد إقامة السلام الدائم[حيث] يجب أن يكون الدستور المدني لكل دولة دستورا جمهوريا[ولا يكون كذلك إلا إذا كان مرتكزا] أولا، على مبدأ حرية أعضاء المجتمع(بصفتهم أناسا)، وثانيا على مبدأ خضوع الجميع(بصفتهم رعايا) لقانون وحيد مشترك، وثالثا على قانون المساواة بين الجميع (بصفتهم مواطنين)[وبذلك فقط يكون]هو الدستور الوحيد المنبثق من فكرة العقد الأصلي، وعليه وحده يجب أن يقوم كامل التشريع القانوني للشعب)).[33] ولا يتصور قيام دولة جمهورية إلا إذا تم فعلا تنمية الشعور بالحرية وبقيمتها عند كل فرد من أفراد الدولة، باعتبارها مبدأ وغاية، وتم فعلا تعويد الإنسان على الانضباط واحترام القوانين بدافع أخلاقي وليس بدافع الخوف والتي يؤدي احترامها إلى تحقيق العدالة والمساواة والسلام وتحقيق كل القيم السامية.

الهوامش

1ـ كانط تأملات في التربية ـ ماهي الأنوار ـ ماالتوجه في التفكير؟ تعريب وتعليق محمودة بن جماعة ط1 ،دار محمد علي للنشر صفاقس تونس ، 2005 ، ص16.

2 ـ المصدر نفسه ص .17

3 ـ المصدر نفسه ، ص20

4 ـ المصدر نفسه،ص12.

5 ـ كانط ، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة عبد الغفار مكاوي، ط1،منشورات الجمل، كولونيا ألمانيا، 2002، ص 149.

6 كانط ، تأملات في التربية ، ص11.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

7ـ المصدر نفسه ، ص 14.

8ـ المصدر نفسه ، ص17

9ـ المصدر نفسه ، ص 11.

10ـ المصدر نفسه ،ص11.

11ـ المصدر نفسه، ص27.

12ـ المصدر نفسه ، ص12.

13ـ المصدر نفسه، ص 51.

14ـ جميل صليبا ، علم النفس ، ط 3 ، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان ، 1972 ، ص 101

15ـ كانط، تأملات في التربية ص 33

16ـ المصدر نفسه ، ص33.

17 ـ المصدر نفسه، ص38

18 ـ أوليفيه ربول، فلسفة التربية، ترجمة جهاد نعمان، ط2،(بيروت، منشورات عويدات1982) ص90.

19 ـ كانط تأملات في التربية ، ص39

20ـ المصدر نفسه ،ص47.

21ـ المصدر نفسه ، ص54

22ـ المصدر نفسه ، ص58.

23ـ جون ديوي، الخبرة والتربية، ترجمة رفعت رمضان و نجيب اسكندر ، ط2 ، مكتبة الأنجلو مصرية ، القاهرة ، ص12.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

24ـ كانط ، تأملات في التربية ، ص19.

25ـ المصدر نفسه ،ص19.

26ـ المصدر نفسه،ص19

27ـ المصدر نفسه ، ص15.

28ـ المصدر نفسه ، ص23.

29ـ سعد مرسي أحمد، تطور الفكر التربوي ط 11 (القاهرة ، عالم الكتب) ص11.

30ـ كانط نحو السلام الدائم ، ص31.

31ـ المصدر نفسه ، ص 32.

32ـ كانط، تأملات في التربية، ص19.

33ـ كانط، نحو السلام الدائم،ص40.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com